التراث العربي

سلسلة تصدرها وزارة الإعلام

في الكويت

-٨-

شرح ديوان

لبيد بن ربيعة العامري

حققه وقدم له

الدكتور

إحسان عباس

(طبعة ثانية مصورة)

مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٤

تصدير

للأستاذ الدكتور صـــلاح الدين المنجد

الشعر الجاهلي أساس الأدب العربي كله ، وعنوان فحولته وأصالته . شغل به العلماء والأدباء من القُدامى وما زال يشغل المُحْدَثين . ولن تستطيع أن تنفذ إلى عبقرية العربي إذا لم تحط بشعره القديم علماً . ولقد وصل إلينا هذا الشعر منحولا أو مملوءاً بالتصحيف والتحريف . وكان المستشرقون قد ســبقوا إلى إخراج دواوين الشعراء الجاهليين قبلنا منذ القرن الماضي . وكان حقاً علينا إخراجُها والعناية بها ودراستها منذ بعيد ، غير أننا لم نفعـــل ذلك إلاّ متأخرين ، عندمـــا أحسسنا أن الواجب القومي يدعو إلى ذلك .

ولبيد بن ربيعـــة العامري من أضخم الجاهليين شـــعراً ، وأطولهم حياة ، وأكثرهم فحولة . وكان لا بد من العناية بشعره ونشره كاملاً صحيحاً بعد أن نشر بعضُه . لأنه أنموذج حيّ أصيل للأدب الجاهلي . فلما تصدى لهذا العمل صديقنا الدكتور إحسان عباس ، وتعب فيه وجهد ، ودعوناه ملحّين إلى إخراجه في سلسلة التراث العربي ، بعد أن أصبحت مجمعاً للنصوص الأصيلة الثمينة من تراثنا . فأجاب مشكوراً .

لقد اقتحم الدكتور عبّاس الطريق إلى نشر المخطوطات منذ سنين . فأخرج للناس رسائل ابن حزم ، وديوان الرصافي البلنسي ، وديوان ابن حمديس ، وشارك بعض الأساتذة في نشر الخريدة للأصبهاني ، وجوامع السيرة لابن حزم ، وفصل المقال للبكري . وهو أوسع المشتغلين بتراثنا العربي القديم من إخواننا

الفلسطينيين – ردّهم الله إلى بلادهم معزّزين مكرمين – أقول إنه من أوسعهم علماً ، وأكثرهم تتبعاً ، وسيلمس القارئ مدى جهده الكبير الذى بذله فى تحقيق هذا الديوان – معتمداً على نشراته السابقة ، وما عثر عليه من مخطوطات قديمة حفظتها خزائن القاهرة واستامبول . ومثل هذا الديوان خير محك للعلماء ، وأحسن دليل على جهدهم .

فالثناء منا على جهد الدكتور عباس القيم ، والشكر الوافر لوزارة الإرشاد والأنباء الكويتية التى كم أغنت نتاجنا الحديث بروائع تراثنا القديم .

بيروت : صلاح الدين المنجد

مقدمة

— ١ —

تمهيد عام

تاريخ القرن السادس في منطقة نجد يكاد أن يكون تاريخ الأبطال أبناء المنجبات . والمنجبة هى من ولدت أكثر من ثلاثة بنين أشراف : في تميم كانت مارية التى ولدت لقيطاً وحاجباً وعلقمة أبناء زرارة ، وفي عبس فاطمة الأنمارية أم الكملة : الربيع الكامل وقيس الحفاظ وعمارة الوهاب وأنس الفوارس ؛ وفي بنى جعفر – قوم لبيد – ثلاث من المنجبات هن : خبية الغنوية أم خالد الأصبغ ومالك الأخرم وربيعة الأحوص ، وأم البنين بنت عمرو بن عامر فارس الضحياء وهى أم ملاعب الأسنة وطفيل فارس قرزل وربيعة ربيع المقترين – والد لبيد – ومعاوية معوّد الحكماء وسلمى نزّال المضيق ؛ وأنيسة بنت الوحيد أم عوف وشريح وعمرو أبناء الأحوص . وفي بنى الحريش أقرباء الجعفريين : هالة أم الذادة الذين غلبوا خثعم يوم المسعط أو جبيل الصباح ؛ وفي بنى ذبيان أنجبت زوج بدر بن عمرو حذيفة الذى لقب «ربّ معد» وإخوته حملاً ومالكاً وربيعة والحارث . وعلى هؤلاء يدور تاريخ هذه الفترة وتدور الأيام بين أكبر القبائل الشرقية والوسطى في الجزيرة .

فإذا أضفت إلى هذه الصورة تلك الزعامات في الأطراف وتذكرت سادة مكة والحيرة وملوك كندة أصحاب هجر وما والاها والزعامة الغسانية في الشمال وسيادة بنى حنيفة باليمامة (أما اليمن فكانت تحت السيادة الحبشية) وجدت أنه ليس هناك من تفاوت بعيد في مقدار السيادة بين الوسط والأطراف إلا اختلافاً يسيراً في مدى البداوة عند هؤلاء وهؤلاء . ولكن المستعرض لهذه

السيادات المتعددة يهوله مبلغ ما كانت تعج به الجزيرة من رءوس ، حظها من الشهرة ليس موقوفاً على الشجاعة الفردية فحسب بل عـلى الرأى والتجربة ، ومعنى ذلك أن الجزيرة كانت تقدم أقوى الشخصيات وأصلبها في تاريخهـا ، ولكن الحرب التى كانت أتوناً مستعراً على الدوام ، كانت تبتلع كثيراً من هذه الشخصيات الجبارة التى تنبتها الجزيرة فتحسن إنباتها ثم تأتى الحرب فتحصدها وتمعن في الحصاد . وكانت الحرب تثور لشيء أو للاشيء ، حتى أولئك الحكام النظاميون في الأطراف كان يكفى لإغراء الواحد منهم أن يقال له : هل لك في نعمٍ وسبى ، حتى يجرد كتيبة من الوضائع والصنائع في سبيل ذلك .

وفي هذه الصفحة من التاريخ كانت قيمة القبائل المتوسطة في نظر الحكومات النظامية ، تعتمد إلى حد كبير على أهمية الطرق التجارية التى تخترق الجزيرة من الغرب إلى الشرق ، ولذلك كانت هذه القبائل معرضاً لأطماع اليمن حينـاً ولأطماع الحيرة حيناً آخر ، وهى قد مارست عهدين من التبعية أولهما لليمن وثانيهما للحيرة ، ووضوح هذه الحقيقة يفسّر كثيراً من الحروب التى كانت تشارك فيها ، حيناً ضد الشرق وحيناً ضد الجنوب . غير أن هذا التاريخ غامض كثيراً ، غموض الحياة التجارية نفسها خلال الجزيرة ، ونحن لا نعرف معرفة واضحة متى كانت تلك الطريق ذات أهمية كبيرة في الحياة التجارية . صحيح إن لدينا من الأخبـار ما يشير إلى سير القوافل من الشرق في خفـارة بعض الأشخاص ، كما حدث في إجازة لطيمة النعمان التى جرّتْ حروب الفجار ، ولكن لدينا ايضاً من الأخبار ما يروى أن كل تاجر يخرج من اليمن والحجاز كان يتخفر بقريش ، ما دامت التجارة في بلاد مضر ، وأن قريشاً حالفت تميماً وأسداً من أجل أن توسع حدود تلك الخفارة . فإذا ذهبت التجارة في طـريق العراق أصبحت في خفارة بنى عمرو بن مرثد من بنى قيس بن ثعلبة وهى حماية تحترمها ربيعة جميعاً ، ولكن متى كان ذلك ؟ وأين موقف قبيلة عامر مـن هذا ؟ وهل هناك من منافسة بين شرق الجزيرة وغربها كما كانت المنافسة بين سيادة الحيرة وسيادة اليمن ؟ أسئلة تصعب الإجابة عنها . ولكنا نسـتطيع أن نفترض — غير مبعدين عن الصواب — أن القبائل المتوسطة بعامة وقبيلة عامـر

بخاصة كانت تربطها مصالح تجارية بسوق عكاظ ومصالح أخرى بالمشقر في هجر وأنها كانت تتردد بين السوقين .

ولا بد أن نشير إلى أن سلعة من السلع كانت هامة جداً لهؤلاء الساكنين في الوسط ، تلك هى الأسلحة الحربية . وعلينا ألا نغالى في تصور ما كان يمكن أن يحرزه هؤلاء البدو من عتاد لغلائه وندرته . فـكان الواحد منهم يسـافر إلى الحواضر في طلب درع أو سيف أو رمح ، ولما نهض قيس بن زهير العبـسى للطلب بثأر أبيه ذهب إلى أحيحة بن الجلاح في المدينة يطلب إليه أن يبيعه درعا ، فأهداه واحدة كانت سبباً من أسباب النفور بينه وبين الربيع بن زياد إذ وجد هذا الثانى فيها شيئا خلاباً لا عهد له بمثله . ولما كان عامر بن الطفيل يعد العدة لغزو إحدى القبائل اشترى من بنى نمير أربعين رمحاً بأربعين بكرة . فلم تكن الأسلحة والأعتدة شيئا رخيصاً وافراً ولكنها كانت مما يغالى به تجارها ويعرفون قيمته في ظروف خاصة .

ولا ريب في أنه لم تكن لدى أى قبيلة من تلك القبائل سياسة مرسومة توجّه علاقات الصداقة والجوار ، بل كانت سياستها خاضعة لتقلبات الأحوال نفسها. وليست تخضع القبائل إلا لقانونين صارمين هما قانون الثأر وقانون الحلف . وكلاهما يعتمد على المروءة أكثر مما يعتمد على الدهاء والمصلحة . فالقبيلة تجير بدافع من المروءة وتثأر للفرد من الجماعة كلها ، وفي سبيل الثأر تستبيح الوحشية والأخذ على غرة ، ولا يعيب أبطالها ما يعتلج في نفوسهم من شهوات يرتفع عنها السادة ، ولا تعيّر القبيلة أبطالها بالفرار من الحرب إذا يئست من الانتصار ، لأن النجاة والاستعداد لحرب جديدة أجدى عليها من فقدان أبطالها . وإنما الذى يعير بالفرار هو العدوّ ؛ ولو كان الفرار عاراً محضاً لسقط شأن طفيل بن مالك فارس قرزل ، ولتبددت زعامة عامر بن الطفيل الذى فرّ في أربع معارك أو أكثر . وإذا كان الفرار عاراً فالأسر أشد منه ، والنجاة من الأسر أمر هام لأنها نجاة من العار المعنوى ومن الفدية المادية .

وكانت القبائل المتوسطة على ما تردده من معانى العزة والشهامة والقـــوة ، تشرف كثيراً إذا وجد أفرادها الحظوة لدى الحكومات النظامية كحكومة اليمن والحيرة وبصرى ، وتجد في التشريف الذى يدركها موطنا للفخر والاعتزاز ، ولهـــذا التشريف صور منهـــا الردافة والآكال — وهما مما يفتخر به لبيد — والآكال نوع من القطائع — والمشارفة ولاية الجباية عـــلى الأرياف ومـــا أشبه ، وهى مصدراعتزاز في قول لبيد : « وشارف في قرى الأرياف خالى ». وهنالك الوفود التى تجـــد الإكرام والعطاء في بلاطات الملوك ، وتجـــد الحفاوة بخاصة في المجالس الصحراوية التى كان يعقدها صاحب الحيرة أثنـــاء تبديه ، وتقام فيها الأســـواق ويستعرض فيها المنذر كتيبتيه ، ويستمع إلى الشـــعراء والخطباء يتفاخرون ويتنافرون . ولكن هذه الموالاة لأصحاب السلطان لم تكن تجب الطمع من نفوس البدو أو تقضى على شهوتهم لتملك الإبل العصافير التى يملكها النعمان ، فهم يغيرون عليها وينهبونها كما يغيرون على إبل القبائل المعادية ، بل قد يسبون المتجردة ، زوج النعمان ، نفسها ، ويعتدون على تجارته ولطائمه ويتناهبونها فيما بينهم .

— ٢ —

قبيلة عامر بين القبائل

قبل الأخذ في ذكر شيء من تاريخ هذه القبيلة أحب أن أذكر القارئ بمجموعة من الحقائق البسيطة ، وفي مقدمتها أن ما يعنينى من هذا التاريخ هو ما يسعف على فهم شعر لبيد وشخصيته وموقفه من أحداث قبيلته ، وأن مصادرنا عن هذا التاريخ مضطربة لا تخضع خضوعاً مباشراً للتدرج الزمنىّ ، فحيناً نسمع أن بنى عامر كانوا لقاحاً لا يدينون للملوك وحيناً آخر نسمع النعمان يقول لعصيمة بن سنان وقد أجار بعض العامريين « ابعث إلىّ بعبيدى » (١) . وهناك حقيقـــة أخرى هامة وهى أن قبائل بنى عامر كثيرة متعددة ، وقد ينفرد بعضها بالحرب

(١) المحبر : ٣٥٤

والمحالفة دون بعضها الآخر ، ولكن المصادر كثيراً ما تهمل هذا التمييز فيقع الاضطراب . فهذه المصادر تحدثنا عن الأيام حديثاً لا أراه بعيداً عن الصواب ولكن من الصعب أن نقيم من الروايات تاريخاً مضبوطاً متسلسلا . وتحدثنا المصادر أن واحداً قال يصف بنى عامر « عيون ظباء وأعجاز نســـاء » فأى فرع من بنى عامر يصف ؟ وتحدثنا أنه كان لعامر في الحرب شعار واحد هو « يا جعد الوبر » وأن نميراً في الإسلام هجرت هذا الشعار وجعلت شـــعارها « يا خضراء » فهل كان هذا الشعار عاماً حقاً في الجاهلية للقبيلة كلها ؟ لكل هذا أرى أن ما أكتبه في هذا الفصل لا يعدو أن يكون ملاحظ أقيدها ، حسبما أعان عليه النقد والترتيب للمعلومات المتيسرة .

وأرى أن قبيلة عامر لم تحرز شأناً واضحاً بين القبائل حتى مطلع القـــرن السادس ، فقد ظلت فيما يبدو قانعة بمواطنها الطيبة ومراعيها الخصبة ، وكانت ذبيان قد سدت عليها طريق الظهور ، بل أخضعتها لنوع من التبعية المزرية حين غرض عليها الزعيم العبسى جذيمة بن زهير أن تدفع له إتاوة سنوية ، فكانت في ذلك العهد « أذل من يد في رحم » (١) . واشتط جذيمة في طغيانه وانتشى بخمرة السيادة وبخاصة حين أصبح على صلات ودية وثيقة بمملكة الحيرة . وقد استطاع خالد بن جعفر أن يتخلص من جذيمة هذا في يوم النفراوات وبذلك تبدأ عامر في الظهور . وتجتمع هوازن كلها حول زعامة خالد ، ومنذ ذلك الحين أصبح اجتماع هوازن كلها حول زعيم واحد أمراً يتكرر خلال القرن الســـادس ، وتشاء الظروف أن يكون هذا الزعيم حتى مجيء الاسلام من بنى جعفر بن كلاب — قوم لبيد — .

وحين تزعم خالد قبائل هوازن اتجه نحو عقد الصلات الطيبة مع الحيرة ، وإلى ما قبل مجيء خالد بقليل نستطيع أن نقدر أن نفوذ اليمن كان ما يزال يمتد شمالا حتى يشمل قبائل معد ، وكانت اليمن حينئذ (أى منذ ٥٣٣ م) قـــد أصبحت بيد أبرهة ، بعد عهد من الاضطراب ، ولعلّ ذلك الاضطراب هو الذى ساعد قبائل المنطقة الوســـطى على أن تتخلص من حكامها اليمنيين . وفي

(١) أمالى المرتضى ١ : ٢١٢ .